رسالة إلى القدس

قصة بقلم يحيى يخلف

ازاحت الستائر ، فدفقت اشعة الشمس ، واضاءت الغرفة .. ونظرت اليه وهو يتململ في السرير ثم تنهدت .. واقتربت من سريره ، فأطفأت الاباجورة المضاءة .. والتقطت الكتاب عن البلاط ، واعادته الى مخبئه ، وعندما كانت تعيد نظارته التي يلبسها عنـد القراءة الـى الحافظة ، قالت لنفسها : ان كل الدلائل تشير الى انه نام ليلة تعيسة.

عادت على رؤوس اصابعها ، وفتحت بابـذة الصالون ، والقت بنظرها عبر الشرفة ، فابصرت مجندة اسرائيلية تذرع الرصيف بجانب الابقاض المنداعية السوداء .

اعلقت النافذة سريعا ، وحدقت بصورتها في المرآة المقابلة فأخجلها ان يكون الفزع قد ارتسم على ملامحها ، وبنفس اللحظة سمعت حركته من الداخل ، فأسرعت الى غرفته ...

كان قد افاق من نومه .. وجهه شاحب بصفاء .. عيناه حمراوان، لكن نظراته وديعة ، وشعـر رأسه الاسود الابيض يحتفظ بترجيلته ، وشعيرات فوديه بيضاء اكثر من أي وقت مضى .

سأله حتى دمعت عيناه ، وشبك اصابعه خلف رأسه ، ونظر اليها فشعرت بالارتباك .. قالت : صباح الخير .

هز راسه ، كان واضحا انه يشعر بالدوار .

عادت تقول : لقد اعادوا لك السيارة يا سيدي .

لم يبد على وجهه اية انفعالات ، فتابعت :

ـ انهم لم يعيدوا الا سيارات الاطباء .

اغمض عينيه ، استطاعت ان ترى صورة زوجته واطفاله الثلاثـة تعبر خطوط وجهه ، وبنفس الوقت عبرت خيالها عاصفة مـن اصوات القنابل والرصاص ، والقصف الجنوني ، فانكمشت علـى نفسها ، والتصقت بالحائط .

فتح عينيه ، ونظر اليها ، ثم تساءل : هل تشكين الما ؟.

احست كانما كانت تجري لمسافات طويلة ، فقالت وهي تلهث :

ـ كنت اذكر اصوات قصف الطائرات اليهودية .

خطر له ان ينبهها للمرة العاشرة ، الى ان الطائرات ليست يهوديه فقط ، وانما امريكية وبريطانية ايضا ، لكنه مسح وجهه بطرف كفه في عصبية ، وهبط عن السرير ، وجلس على مقعد بجانب المذياع .. وفتحه.

ـ الاذاعات العربية ما زالت تذيع الاناشيد الوطنية ، ان العرب لن يتركوا القدس محتلة .. اليس كذلك يا سيدي ؟.

ظل يحرك ابرة المذياع ، وتبادر الى ذهنها انه يبحث عن برنامـج « رسائل العرب الى ذويهم في الضفة الغربية » ، وخطر لها انه يتوقع ان يسمع شيئا عن زوجته واطفاله الثلاثة ، وتذكرت صورته المرعبة يوم كان يداوي جرحى معركة السلاح الابيض في الشيخ جراح ، وعاد لحظة ان احتل اليهود جبل الطور .. لقد صفعتها صورته القاسية ، فتجمدت في تلك اللحظات عند الباب ، هزها بعنف ، وقال بصوت مذبوح : لقـد احتلوا القدس ...

كان ما يزال يحرك ابرة المذياع ، ولا بد انه يئس ، فقـد اغلقه ، ثم سألها : هل تسمعين الرسائل الصوتية ؟

اجابت : اسمعها بطريق الصدفة ..

فتح شفتيه ليقول شيئا ، لكنه لم يلفظه ، فعرفت انه كان سيطلب منها ان تستمع الى هذه الرسائل ، فربما سمع خبرا ما عـن زوجته واطفالـه .

اشعل اخر سيجارة لديه ، والقـى بالصندوق الفارغ جانبا ، وتذكرت فنجان قهوته الصباحي ، فقالت :

ـ ليس عندنا سكر ولا شاي .. ولا خبز .. عندنا قليل من البن ، سأصنع لك قهوة سادة .

قامت دون ان تسمع الى اجابته ، ظل في الغرفة وحيدا ، وظل يدخن في صمت ، واجال بصره في اطراف الغرفة التي تضيق بالدخان، وتوقفت نظراته عند صورة الزفاف التذكارية المعلقة علـى الحائط ، وقف ، واقترب .. وحدق بوجه (فائزة) الذي يطل من خلال فستان الزفاف والطرحة وضمة ورد ، وخيل اليه انه يرى الصورة بشكل واع لاول مرة .. وكانت صورته بالبدلة الكحلية والمنديل الابيض والشارب الخفيف توحي بالشباب والفتوة ..

ومرت في خياله ذكريات ندية ، تشبه التقاء اول قطرة مطر بأول ذرة تراب .

ومرت في خياله ذكريات ندية ، تشبه التقاء اول قطرة مطر بأول يد العميد ، ثم وهو يستقبل اول زبون في عيادته الصغيرة ، ثم وهو يدفع بفائزه لاول مرة ذات أمسية شتائية ، ثم أول طفل يولد لهما ، واول مؤتمر طبي يشترك فيه .. و ... وسمع خطوات الخادمة خلفه ، فالتفت كانما فاجاته في موقف ضعف .. وسمع صوتها :

ـ هذه القهوة يا سيدي .. انها ...

وتوقفت تجاه ، ثم قالت باهتمام : ـ سيدي .. انت تبكي ..

وجد صوته يجيب : ـ انا .. انا ابكي .. من قال ذلك ؟

ـ انا ابصر الدموع في عينيك .. انظر الى المرآة ..

شاهد صورته من خلال الغبش في المرآة ، كانت ثمة دموع فـي عينيـه ..

خرج من الغرفة مندفعا الى الصالون ، فمضت على شفتها ،وكانت تستطيع ان تحس جيدا كم هو يتعذب ..

دفن اخر سيجارة في المنفضة ، واسند ظهره الى الاريكة .

قالت لنفسها : « ـ انه يتعذب .. انه يحترق في صمت ، زوجته الست فائزة سافرت مع أولادها الى بيروت بعد سوء تفاهم بينهما .. سافرت قبل الحرب باربعة أيام .. ترى .. أي عذاب يشتعل فـي جوانحه ؟ » ..

اعتدل بجلسته ، ثم انحنى ، ودفن وجهه بين كفيه . ظلت تحدث نفسها « .. يوم سقطت القدس احترق دمه .. ترى هل بقي في قلبه نبضات تتالم ؟ » .

قالت تخاطبه : ـ سيدي ..

أزاح احدى كفيه ، وظلت الكف الاخرى تخفي نصف وجهه.

عادت تقول : ـ سيدي .. لماذا لا تخرج من الضفة الغربية ؟

تحول وجهه الى قطعة من الفخار ، فاستطردت قائلة : ـ كثير من الناس عبروا الى الضفة الشرقية .. ان اليهود يطردون الناس طردا ، فلماذا لا تخرج ؟ ... انت لديك سيارة .. سنصل بها حتى ضفة النهـر .

قست ملامح وجهه ، وبدأت تتحول الى صوان أحمر ، وقال بصوت مرعب :

اسكتي ..

صمتت لحظات ، ثم اندفعت قائلة :

ـ زوجتك الست (فائزة) في بيروت ومعها اولادك ، تستطيع ان تذهب الى بيروت وتفتح عيادة هناك .

وقف ، وكان الانفعال يبدو جليا في حركاته .. وقفت وقالت بصوت مرتفع :

ـ ترى .. اي مصير ينتظر الست فائزة والاولاد بدونك ؟

استدار نحوها سريعا ، وصفعها بكل قوته ، فسقطت على الارض باكية ، ثم بدأت تنتحب .

مر في ذاكرته سريعا ان هذه المرأة غريبة .. وان اهلها في مكان ما من الضفة الشرقية ، وانها تتعذب مثله وتتألم ، وان الحنين يمزقها، فركع على ركبتيه ، ورفعها عن الارض ، ومسح دموعها بابهامه .. ثم وقف ، وبعد فترة طويلة من الصمت قال :

ـ جهزي حاجياتك .

قامت من الزاوية ببطء ، كأنما لا تصدق ، وقالت بصوت شاحب:

ـ انهم لا يسمحون لاحد بان يخرج معه شيئا .

ثم غابت في المطبخ ، فدخل غرفته ، وارتدى ملابسه ، وعندما خرج كانت متهيئة للرحيل ... تحمل في يدها صرة صغيرة ، ويرتسم الذبول على وجهها .

التقت عيناهما للحظات ، فابتلع ريقه بصعوبة كأنما يزدرد شيئا صلبا ، وتحركت خطواته امامها ببطء كأنه يسير في جنازة . فتح لها باب السيارة ، فدخلت ، ثم أطبق الباب بقوة ، كأنما يريد أن يلصقه فلا يفتح أبدا ..

وتابعته بعينيها وهو يستدير ويعبر أمام النافذة العريضة ، ثم يفتح الباب ويغوص في المقعد وراء عجلة القيادة ...

.. من وراء الزجاج كانت المدينة القديمة تنبسط تحت جبل الزيتون .. قبة الصخرة تتوهج تحت الشمس ، واشجار السرو في ساحة المسجد .. وقباب الكنائس فوق طريق الالام .. وحارة النصارى .. وازقة وبواكي سوق الدباغة .. وخان الزيت ...

تجمدت يداه على المفتاح ، وامتقع وجهه ، وحدقت به ...

امتقع وجهه للغاية ، وتتابعت وجوهه الحمراء .. والزرقاء .. والصفراء .. فجأة قال بصوت صلب : ـ لن اخرج .. سابقى هنا .

ظل يحدق عبر الزجاج ، ثم تابع كلامه :

ـ هذه ارضي .. وهذا منزلي .. ولن ادع احدا يغتصبهما .

دارت عيناها في محجريهما ... عينان سوداوان محروقتان .

ظل كل منهما صامتا ، كان عليها ان تتكلم وتبدد الصمت .

فتح فمه ، ثم تردد قبل ان يقول :

ـ بالنسبة لك ، تستطيعين أن تذهبي ..

وفتح باب السيارة وهبط ، وسار .. ثم تلاحقت خطواته وهو يصعد الدرجات .. وفتح الباب ، وداهمه احساس حاد بالاصرار ، وعاد ليجلس مرة أخرى ، ويحدق عبر النافذة بالابنية المتهدمة من القصف ..

بعد قليل سمع خطواتها .. خطوات ضعيفة تنتقل بصعوبة .. وشاهدها على زجاج النافذة وهي تعبر الى المطبخ ، ثم وهي تعود بملابس العمل ، وبيدها مكنسة ...

***

قالت له :

ـ اريد نقودا لاشتري لك السجائر والخبز والشاي والطعام .

وبنفس اللحظة ، بدأ المذياع يذيع الرسائل الصوتية ، الصق اذنه بالمذياع ، وبدأت الاصوات الحزينة الراعشة تبعث بتحياتها ..

انتهى البرنامج دون أن يسمع ما ينتظر ، ورغم تصلب وجهه ، فانه لم يستطع ان يخفي سحابة من الاسى غامت بها عيناه .

عادت تقول له :

ـ اريد نقودا لاشتري ..

مد يده ، وأخرج النقود ، تفرست بها ، ثم قالت :

ـ سمعتهم يقولون بان اليهود سيستبدلون بالعملة الاردنية العملة الاسرائيلية .

قال لها بصوت لا يمت اليه :

ـ يحسن بك أن تذهبي قبل ان يبدأ منع التجول .

عقدت الغلالة على رأسها ، ودست أصابع قدميها في الشبشب..

وعندما همت بالتحرك ، تناهى الى سمعهما صوت طلقات نارية .

وقف سريعا ، والصق جبهته بزجاج النافذة ، وعلى الرصيف المقابل شاهد جثة انسان تتمدد وسط بركة من الدماء ، بينما وقف فوقها جندي اسرائيلي ..

شعر بشيء ما يمزق عروقه ، فقال بصوت صارم :

ـ انها جثة عربي .. لا بد انه فدائي ... انظري .. انه يرتعش .. انه بحاجة لمساعدة .. ربما كان هناك أمل ما ..

استدار عن النافذة ، واندفع مهرولا ، فلحقته لتثبت به وتمنعه من الذهاب ، غير أنها لم تدركه ، وعادت الى النافذة فابصرته يسير تجاه الجثة والجندي .. وهو يسير على بعد يسير من الجندي كان يتكلم ، ولا بد انه أخبر الجندي بانه طبيب ، وعندما وصل ، رفع الجندي بندقيته عاليا وضربه بطرفها في بطنه . خرجت من فمها شهقة رعب ، وامتدت يدها الى بطنها في ألم ، رشاهدته ينحني ، ثم يسقط وقد تكور على نفسه كالجنين بجانب الجثة ..

وراء الزجاج ، كانت تقف كالتمثال .. كل شيء مر سريعا . كل شيء لا يصدق .. وشاهدت سيارة جيب تقف وتحملهما ، ثم تنطلق تاركة خلفها عاصفة من الغبار .

وبدأت تعي ذهولها.. وتلفتت حولها.. ومرت في ذاكرتها اصوات الطائرات والمدافع والقصف الجنوني ، فالتصقت بالحائط ، وصفعت الستائر موجة من الهواء ، وفي الوقت نفسه كان صوت امرأة يرتعش في المذياع « أنا فائزة أحمد عبد الفتاح .. زوجة الدكتور عبد الفتاح من سكان الطور بالقدس .. » .

أوه .. ازداد التصاقها بالحائط ، وازداد عنف الموجات الهوائية التي تنطح الستائر .. « ابعث بسلامي ، وسلام الاولاد الى زوجي الدكتور واخبره انني جئت من بيروت الى عمان لاكون أكثر قربا منه».

.. جثت على ركبتيها ، كما كانت تجثو للعذراء في قبو كنيسة القيامة ... « كلنا بخير .. ليحفظك الله .. اطمئن وطمئننا .. والرجاء ممن يسمع هذه الرسالة الصوتية أن يبلغها الى صاحبها .. » .

كانت ما تزال جاثية ، وكانت تلك آخر رسالة صوتية في البرنامج، بعدها اعلن المذيع أن المعركة مستمرة .

اربد (الاردن) يحيي يخلف

مكتبة روكسي

اطلعوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب